انتصار الحوار من أجل الحضارة

خالد إبراهيم الشرف

عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ دعت الإدارة الأميركية آنذاك إلى شن الحرب على الإرهاب، وصنفت العالم كله إلى معسكرين لا ثالث لهما: معي أو ضدي. في ذلك الوقت تساءل كثيرون عن مفهوم الإرهاب المقصود، ودعت مصرُ إلى عقد مؤتمر دولي لتحديد مفهوم الإرهاب، عارضت الإدارة الأميركية وسكت الجميع عن الموضوع.

إن كنت طالبا للحقيقة.. محبا لها.. متجردا من الأهواء، فإن الحوار من أهم الطرق الموصلة إليها، لذا عارضت الإدارة الأميركية آنذاك عقد مؤتمر دولي للتحاور حول مفهوم الإرهاب، إذ إنه سيقطع الطريق نحو الخطوة التالية من خطتهم التي بدأت بتفجير منهاتن المذكور، والخطة في مجملها تصب في خانة المصالح الأميركية والصهيونية حول العالم على حساب الحقيقة، ومصالح مشروعة لشعوب أخرى.

ذلك مثال فقط على أهمية الحوار؛ وبعيدا عن السياسة.. فإن الاختلاف والتنوع سنة كونية وبشرية، «فعند التجرد من الهوى» يكون الحوار -في أي مجال- من أهم آليات التوافق والتلاقي بين البشر «عند التجرد من الهوى»، من أجل تعاون البشرية لما فيه خدمة البشرية وارتقاؤها، ويكون الحوار طريقا إلى الحقيقة يفهمه الجميع، مهما تفاوتت بينهم مستويات التفكير، إذ يمكن للحوار أن يكون عميقا أو بسيطا، وفق مستوى الفهم لدى المتحاورين. ولأنه طريق إلى الحقيقة، فإن طالب الهوى والمصلحة يزعجه الحوار، فيسعى إلى الإرهاب الجسدي للمؤمن بالحوار، وقمعه في مواجهة الحقيقة، أيا كان شكل القمع.

خير دليل على ذلك تعرُض إبراهيم عليه السلام للعقوبة الجسدية لمّا غلبهم في حوار كانوا فيه متعصبين لا يطلبون الحقيقة، إذ يقول الله تعالى: «قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم»، وكذلك تعرّض الرسول (ص) وأصحابه في مكة للتهكم والتعذيب والتنكيل مقابل دعوته، وما الدعوة إلا كلمة وحوار؟.. حتى أمرهم النبي بالهجرة إلى الحبشة في السنة الخامسة من بعثته، فهاجر اثنا عشر رجلا وأربع نسوة في الدفعة الأولى يتقدمهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت النبي، متسللين تحت جنح الظلام، حتى وصلوا إلى ميناء جدة، حيث وجدوا سفينتين تجاريتين مبحرتين إلى الحبشة، فوجدوا في الحبشة عند مَلكها الأمن والأمان على دينهم وأنفسهم، فيما يسمى في اصطلاح اليوم باللجوء السياسي، مقابل القمع الذي مارسته قريش لإسكات الحوار.

في الحبشة.. انتصر الحوار أيضا في بيان الحقيقة، حين طارد مشركو مكة الحوار لقمعه، فأرسلت قريش وفدا إلى النجاشي محملا بالهدايا للملك وحاشيته ليسلّمهم اللاجئين من دون سؤالهم، متعاونين مع بعض مستشاريه، بدعوى أن المهاجرين فارقوا دين آبائهم ولم يدخلوا في النصرانية دين النجاشي، فهم خطر على ثوابت المجتمع، فرفض تسليمهم ما لم يسمع منهم، فتقدم جعفر بن أبي طالب وقال: «أيُها الملك، كنّا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف، فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله. فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان. فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورجونا ألا نُظلم عندك أيُها الملك»، فطلب منه النجاشي أن يقرأ عليه شيئاً مما جاء به الرسول عن الله، فتلا عليه بعضا من سورة مريم، فبكى النجاشي حتى اخضلّت لحيته، وبكى أساقفته كذلك، وقال: «إنّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة».. وقال لوفد قريش: «انطلقا، فلا والله لا أسلّمهم إليكما»، وهكذا انتصر الحوار في بيان الحقيقة.

لنتأمل قول الله عز وجل عن قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف: «قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا»؟!، وكذلك عن خولة بنت ثعلبة لما حاورت النبي في الظهار، نزل فيها قول الله تعالى: «والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير»، والتوجيه الرباني للنبي ولمن اتّبع سنته: «وجادلهم بالتي هي أحسن» والمقصود به الحوار العقلي؛ ومن الظاهر في كلام الله أن الحوار

لا يقتصر على الاختلاف العقَدي، بل أؤكد أنه سبيل للوصول إلى الحقيقة أيا كانت، وفي أي مجال، ومع أي كان، حتى الحوار مع الذات، إذا تأملنا قوله تعالى: «يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعَدَلك في أي صورة ما شاء ركبك»، فهي دعوة إلى حوار الإنسان مع ذاته للوصول إلى الحقيقة في علاقته بربه.

في الموضوع أعجبتني دعوة رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين د. يوسف القرضاوي، بإطلاقه مبادرة للحوار بين الإسلام وأتباع الديانات الشرقية «الهندوسية والبوذية والسيخية والكونفوشيوسية وغيرها» من خلال ندوة في العاصمة الهندية نيودلهي في ٢٠ و٢١ من الشهر الحالي، إذ رأى أن التفاهم والتقارب مع أتباع الديانات أفضل من التباعد، لأن كثيرا من المسلمين يعيشون متجاورين أو متلاصقين معهم، إضافة إلى وجود جالية كبيرة من معتنقي هذه الديانات منتشرة في كثير من دول العالم الإسلامي ودول الخليج خاصة، كما أن الوثنيين في العالم أكثر عددا من الكتابيين.

الحوار وسيلة راقية للتوافق الإنساني بعامة لا يختص بدين معين ولا مجتمع محدد، والحقيقة يمكن أن تنتشر في أجواء الحوار والتعقل، أفضل مما تنتشر في أجواء التوتر والتصادم، إن كان كلا طرفيه صادقا هادفا للوصول إلى الحقيقة فحسب، موافقا لقول الإمام الشافعي: «ما جادلت أحدا -أي حاورته- إلا وددت أن يظهر الله الحق على لسانه». وهكذا تتوافق الآراء.. فتتقارب الحضارات لبناء مستقبل البشرية، التي لا يمكن أن تُبنى بالتصادم ولا بالإقصاء.

khaled.alsharaf@awan.com